صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام

إعداد

د . عادل الأسطة

جامعة النجاح الوطنية

كلية الآداب/قسم اللغة العربية

صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام

أتناول في هذه الدراسة أربعة نصوص قصصية لأربعة أدباء، من لبنان وفلسطين وسوريا والأردن، أنجزت في الأعوام ١٩٣٩ و ١٩٧٨و ١٩٧٧ و ١٩٩٤، وأتتبع صورة الأتراك فيها.

ويلاحظ أن الزمن الروائي لهذه النصوص لا يتطابق والزمن الكتابي، ويكاد الزمن الكتابي لأكثرها يتشابه، حيث يكتب الأدباء عن فترة حكم الأتراك للبلدان العربية، ولا يشذ جزئياً إلا حنا مينه الذي تشابه مع الأدباء في جانب واختلف في جانب آخر.

لقد كتب مينه عن الأتراك حكاماً للوطن العربي، ولكنه في الوقت ذاته تناول شخصية تركية عرفها في زمن لاحق ، زمن كان حكم الأتراك فيه ولى وانتهى.

وأعتمد في استخراجي صورة الأتراك على النصوص نفسها، دون أن أعود إلى كتب التاريخ والمجتمع والسياسة للتأكد من مدى صدقها، إذ ليس هذا من مرماي، وإنما هدفي هو أن ألحظ كيف كتب الأدباء ، وهم يمثلون شريحة ثقافية، عن الأتراك.

وأشير إلى أن هناك دارسين عرب آخرين توقفوا أمام موقف الأدباء من تركيا، وقد أشرت إلى بعض دراساتهم. ولئن كنا نحن مهتمين بالكتابة عن تصور أدبائنا للأتراك، فإن هناك دارسين عكفوا على دراسة صورة العرب لدى الأتراك، وأشير هنا إلى دراسة إبراهيم الداقوقي " صورة العرب لدى الأتراك "(بيروت ١٩٩٦) ، ولمن يرغب في معرفة شكل العلاقة بين العرب والأتراك، فيمكنه أن يعود إلى كتاب سيّار الجميل " العرب والأتراك: الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة"(بيروت، ١٩٩٧).

تقتصر هذه الدراسة، إذن، على نصوص أدبية معينة أنجزها أربعة أدباء عرب ينتمون إلى أربعة أقطار عربية في أزمنة مختلفة.

صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام

د. عادل الأسطة

تمهيد:

في نيسان من العام ٢٠٠١ صدر عن سلسلة" إبداعات عالمية" مختارات من القصة التركية المعاصرة[١]، وقد صدّر مترجمها لها ومما ورد في كتابه:

" إن أواصر العلاقة بين الأدبين التركي و العربي هي في أدنى مستوى لها، وهي من دون علاقة بأي أدب أخر، وخاصة الأدب أو الآداب الأوروبية"[٢]، وأضاف:

" على حين يجب أم يكون الأمر على العكس، فالروابط الاجتماعية والدينية للشعبين العربي والتركي تعود إلى فترة مبكرة بدأت بالفتح العربي الإسلامي لبلاد الترك الأصلية في أواسط آسيا العام ٥٤هـ، واستمرت هذه العلاقة بتداخل يندر وجود مثيل له في التاريخ حتى العام ١٩١٦ ... "[٣].

وقد دفعني هذا، وأنا أسترجع ما كتب عن الأتراك في الأدب الفلسطيني إلى التساؤل عن قلة الكتابة عن نماذج بشرية تركية فيه، قياساً إلى ما كتب عن الإنجليز واليهود. وحثتني قراءاتي حول صورة الأوروبي في الأدب العربي إلى التساؤل عن نماذج قصصية روائية بارزة أتت على صورة التركي، ولأن صورة التركي قد تكون حاضرة في نماذج روائية، بل إنها حاضرة، كما سنرى في هذه الدراسة، إلا أنني لم أطلع على نص روائي بارز ومعروف ومنتشر انتشار نص توفيق الحكيم" عصفور من الشرق"(١٩٣٧) أو نص سهيل إدريس" الحي اللاتيني (١٩٥٣) أو نص الطيب صالح" موسم الهجرة إلى الشمال"(١٩٦٦). وربما كانت الصورة التي قدمت للأتراك في بعض المسلسلات المصرية، أو في بعض المسلسلات السورية، هي ما يعوض هذا النقص.

---

(١) مختارات من القصة التركية المعاصرة، ترجمة عبد القادر عبد الحي، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سلسلة إبداعات عالمية العدد ٢٣٩، نيسان٢٠٠١.

(٢) السابق، ص٧.

(٣) السابق، ص٧.

ولربما يتساءل المرء: لماذا برزت صورة الأوروبي في النثر القصصي أكثر مما برزت صورة الأتراك؟ علماً بأن هؤلاء سيطروا على البلدان العربية حوالي ٤٠٠سنة؟ أيعود السبب في ذلك إلى أن النثر القصصي في العالم العربي بدأ يزدهر في وقت بدأ فيه حكم الأتراك للبلدان العربية يأفلُ؟ وإلى أن النماذج القصصية التي أنجزت بعد عام ١٩١٨ كانت تكتب عن الواقع المعيشي الراهن، لا عن الماضي المنصرم غير المرغوب فيه؟ ربما! فما كتب عن الأوروبيين في النماذج القصصية المذكورة يعكس تجارب أفراد عاشوا في الغرب بعد عام ١٩١٨– أي يوم غدت رحلة الطلاب العرب صوب باريس ولندن، لا نحو الآستانة والمدن التركية الأخرى.

ولربما يثار السؤال التالي هنا: ماذا عن النصوص الأدبية التي أنجزت في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، حيث كانت رحلة الطلاب العرب تتجه أساساً نحو الآستانة؟

تندرج كثير من النصوص الأدبية التي أنجزت إبان حكم الأتراك تحت جنس الشعر، وقد أبرزت هذه صورة إيجابية للسلطان التركي، وقد توقف دارسون أكاديميون أمام قصائد المديح التي قيلت في السلطان عبد الحميد، يوم كان سلطاناً، وأبرزوا صورته في القصائد[٤].

ولا أعرف نصوصاً نثرية تندرج تحت باب القصص أو الرواية أنجزت قبل عام ١٩١٨ وأتى أصحابها فيها على تصوير الأتراك، نصوصاً ذات شهرة أدبية، ومع ذلك يمكن التوقف أمام نصين أبرزا صورة للأتراك وعلاقتهم بالعرب؛ ***الأول*** مقامة أحمد فارس الشدياق(١٨٠٥–١٨٧٧)" في سلام وكلام" التي وردت في كتابه" الساق على الساق في ما هو الفارياق"[٥] (١٨٥٥)، ***والثاني*** رواية فريدة عطايا" بين عرشين"(١٩١٢)[٦].

يورد الشدياق في مقامته الفقرة التالية:

فأما رجالها–أي مدينة الإسكندرية–(ع.أ)– فإن للترك سطوة على العرب وتجبرا،

---

(٤) يمكن أن أشير هنا إلى دراستين للتمثيل فقط؛ الأولى هي دراسة الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه" حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة.. حتى النكبة"(بيروت، ط٢/ ١٩٨١)، وتحديداً في الصفحات التي يتناول فيها المرحلة الأولى من حياة الشعر الفلسطيني(ص١٢١ وما بعدها)، والثانية هي دراسة الدكتور سمير شحادة التميمي" حسان فلسطين: سليم أبو الإقبال اليعقوبي١٨٨٠–١٩٤١"(القدس، ١٩٩١) وينظر هنا ص١٢٥ وما بعدها حيث يكتب الدارس عن إشادة الشاعر بالأتراك وبحكمهم.وقد تجدر الإشارة هنا إلى دراسة ثالثة أنجزها الدكتور خليل محمد سالم وعنوانها"اسكندر الخوري البيتجالي: حياته وأدبه" فلسطين، بيت جالا١٩٨١)، وينظر هنا ص٥٧ وص ٥٨ حيث يكتب الدارس عن موقف الشاعر من تركيا. وسيرى القارئ أنه–أي اسكندر الخوري– ذو موقف مختلف كلياً عن موقف اليعقوبي، فإذا كان الأول أشاد فإن الثاني هجا ونقم.

(٥) انظر طبعة بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، وقد قدم له وعلق عليه الشيخ نسيب الخازن.

(٦) الرواية غير متوفرة لي، وأعتمد هنا على دراسة الدكتورة بثينة شعبان" ١٠٠ عام من الرواية النسائية العربية، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٩.

حتى أن العربي لا يحل له أن ينظر إلى وجه تركي كما لا يحل له أن ينظر إلى حرم غيره وإذا اتفق في نوادر الدهر أن تركيا وعربياً تماشيا أخذ العربي بالسنة المفروضة، وهي أن يمشي عن يسار التركي محتشماً خاشعاً ناكساً متحاقراً متصاغراً متضائلاً ... ... فإذا عطس التركي قال له العربي رحمك الله، وإذا تنحنح قال حرسك الله وإذا مخط قال وقاك الله ... وقد سمعت أن الترك هنا عقدوا مجلس شورى استقر رأيهم لدى المذاكرة على أن يتخذوا لهم مركباً وطيئاً من ظهور العرب ... "[٧]

ويعكس النص نظرة الأتراك للعرب وطريقة تعاملهم معهم في مدينة الإسكندرية في القرن التاسع عشر، يوم كانت الدولة التركية قوية إلى حد ما، وهي نظرة سوف تظل تتردد في النصوص التي أنجزت في القرن العشرين، حين كان أصحاب هذه النصوص يكتبون عن الدولة التركية وسيطرتها على البلدان العربية.

تعد رواية فريدة عطايا من الروايات التي يتطابق فيها الزمنان الكتابي والروائي. إن تاريخ صدورها قريب من تاريخ وقائعها. وتعطينا الرواية تصوراً عن حياة الأتراك والشعوب التي حكموها ولعلها ذات قيمة لأنها تكتب عن الأتراك في زمن حكمهم لا في زمن آخر انحسر الحكم التركي فيه وتراجع، كما هو حال الروايات التي سنعاينها بعد قليل. ويعد ما توصلت إليه د. بثينة شعبان ذا قيمة وفائدة تتوصل الدراسة، حين تتحدث عن الرواية وشخوصها، إلى ما يلي:

" كما يتم الكشف عن دواخل الشخصيات مما يبرهن على حقيقة بسيطة لكن هامة، وهي أنّ كلاً منّا هو نتاج ظروفه أو ظروفها بمن فينا هؤلاء الذين يبدون أقوياء أو في مرتبة أسمى. وتتمتع الرواية بأبعاد ثلاثة هامة وهي: الأتراك والعرب والأرمن. وتظهر نقاط الضعف والقوة لكل مجموعة مما يقود القارئ إلى النتيجة الحتمية، وهي إن جميع البشر متشابهون، فهم يتصرفون وفق ما خلقت منهم ظروفهم لأنهم ينتمون إلى طائفة أو جنس أو قومية معنية"[٨].

وهكذا نرى، من خلال الفقرة السابقة، اختلافاً عما ورد في نص الشدياق. هنا، كما تقول شعبان، الناس جميعاً متشابهون وأنهم نتاج ظروفهم بمن فيهم الذين يبدون أقوياء أو في مرتبة أسمى.

---

(٧) الشدياق، الساق على الساق، ص ٢١٦.

(٨) بثينة شعبان، ١٠٠ عام من الرواية النسائية العربية، ص٦١.

سوف أتوقف، الآن، أمام أربعة نصوص قصصية وروائية أتى فيها أصحابها على ذكر الأتراك ذكراً إجمالياً، وأبرز بعض هؤلاء الكتاب نماذج بشرية فردية. ولكن يجدر قبل تناول هذه النصوص نصاً نصاً أن يشار إلى ما يلي:

أولاً: صدرت هذه النصوص في فترات زمنية مختلفة، تعود أولاها إلى مرحلة الثلاثينات، فيما كتبت ثانيتها وثالثتها في فترة السبعينات، وأما رابعتها فقد أنجزت في التسعينات من القرن العشرين.

ثانيها: اعتماداً على أولاً، كما يلاحظ من أعلاه، فقد أنجزت في عهد الدولة الوطنية، بعد انحسار الحكم التركي وزوال الانتداب البريطاني والفرنسي.

ثالثاً: لقد تم اختيار نص واحد من كل بلد من بلدان الشام الأربعة؛ لبنان وسوريا وفلسطين والأردن.

رابعاً: تراوح هذه النصوص بين قصة قصيرة وقصة طويلة ورواية.

أولاً: الرغيف لتوفيق يوسف عواد.

ولد توفيق يوسف عواد في بحر صاف في لبنان، في العام ١٩١١، ودرس الحقوق في دمشق ما بين ١٩٣١-١٩٣٣، وتوفي في العام ١٩٨٩. وصدرت روايته "الرغيف" في طبعتها الأولى، في بيروت، في عام ١٩٣٩-أي يوم كان في الثامنة والعشرين من عمره[٩]. وقد صدر روايته بالعبارة المعروفة "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"، وسنرى أنها عبارة دالة، ويهدي روايته إلى أبيه الذي قدم له "في أيام الحرب الكبرى، وإلى إخوتي وأخواتي، أرغفة سكبت لها عرق جبينك ودم قلبك، عهد تخلي الآباء عن أبنائهم وأنكر الأخ أخاه"[١٠] والحرب الكبرى هي الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وفيها تدور أحداث الرواية، وكان المؤلف يومها بين الثالثة والسابعة من العمر، وهذا يعني أنه عاصر الحكم التركي لبلاده، وبالتالي فإن كتابته عن الأتراك تتشكل، بالإضافة إلى حكايات الجدة حول الموقد في الشتاء[١١]، تتشكل من خلال المعايشة والرؤية، وهذا ما أفصح عنه في المدخل الذي

(٩) أعتمد هنا على ط١٥، ١٩٧٨.

(١٠) انظر الرغيف، ص المقدمة.

(١١) انظر أعلام الأدب العربي المعاصر: سير وسير ذاتية، المجلد الثاني، بيروت، ١٩٩٦.(تحرير الأب روبرت كامبل اليسوعي) ص ٩٧٧. وحول حياة المؤلف ينظر المكان نفسه.

صدر به الرواية. ويعد مدخل الرواية مهماً لأنه يفصح لنا عن تصور شاب مثقف حاصل على شهادة في الحقوق، تصور شاب لذاته ولآخرها.

يرسم عواد للبنانيين صورتين، صورة مشرقة وأخرى سلبية، الأولى ما كان عليه اللبنانيون في الماضي، والثانية ما هم عليه يوم دخل الأتراك بلده عام ١٩١٤، الأولى صورة من يقاوم الظلم والثانية صورة من يخضع ويخنع:

" كانوا –أي الأتراك– يخشون قيام اللبنانيين يوجههم ويحسبون لهم حساباً، لما اشتهروا به في سالف الأزمان من الرجولة والمروءة، ولما تمتعت به جبالهم من مناعة وشموخ واستكبار"[١٢]

ولم يقف في طريق تلك الحملة إنسان من لبنان إلا أن" بقية من الدم الكريم أبت إلاّ أن تفور في صدور النابهين المتعلمين من الشبان، فتعاونوا مع إخوانهم وأبناء عمومتهم وخؤولتهم في كل شعب من الشعوب العربية على خلع نير الأتراك"[١٣].

والاستثناء الوحيد، الاستثناء الإيجابي في الصورة السـلبية للذات يبدو، كما يتضح، في شريحة المثقفين العرب. ويلاحظ أن عواد يصدر عن نزعة عرقية تذكرنا بما ورد في كتاب(أدولف هتلر) " كفاحي" الذي كان شائعاً يوم كتب عواد روايته" إلا أن بقية من الدم الكريم". ويرى عواد في الأتراك أجنبياً محتلاً. كان المؤلف يرى في الأتراك، يوم كان طفلاً في الثالثة، عسكراً صفق لهم، ولكنه حين كبر رأى ذلك الطفل طفلاً ساذجاً، ولعن ألف مرة ومرة نغمات طيبات أطلقتها أرضه الندية، لأن الأتراك الذين استقبلهم اللبنانيون أطعموا السكان، حين تمكنوا من حكمهم" شعيراً وكرسنة وزؤاناً"[١٤].

ثمة صورتان، كما نرى، يبرزهما الكاتب، إذن، للأتراك، الأولى تلك الصورة التي رآهم عليها يوم دخلوا لبنان، والثانية تلك التي كانوا عليها، لمدة أربع سنوات، يوم حكموا لبنان. ولئن كانت الصورة كلها جاءت من الذاكرة، إلا أن إنجازها، كما أشرت ابتداءً، تم بعد مرور عشرين عاماً على انتهاء حكم الأتراك للبنان والوطن العربي. ولا ندري ما الذي كان عواد سيكتبه لو أنه أنجز روايته يوم كان الأتراك يحكمون لبنان والوطن العربي؟ وسيظل هذا السؤال حاضراً في أثناء دراسة النصوص المعاينة.

لئن كان هذا هو تصور عواد نفسه للأتراك واللبنانيين، فما هو تصور سارده – وقد

---

(١٢) عواد الرغيف، ص٨.

(١٣) السابق، ص٩.

(١٤) السابق، ص٩.

يتطابق هذا وعواد نفسه – للبنانيين وللأتراك. تبدو عبارة عواد في المدخل عبارة مهمة:" غير أن بقية من الدم الكريم ... "، فالذين يقاومون الأتراك، في النص الروائي، هم المثقفون ممثلين بشخصية سامي عاصم الشاب المثقف المتعلم الذي ينظم الشعر ويرفض حكم الأتراك وظلمهم، وخلافاً لهذا نجد من اللبنانيين من يتطوع في الجيش التركي ومن يتعاون معهم ويقيم علاقات وطيدة مع الحكام، بل إن هناك من يقدم للأتراك الطعام من أجل الحصول على الرغيف. دم سامي عاصم هو بقية من الدم الكريم على رأي يوسف عواد، وأما الآخرون فهم الذين لم يقفوا في طريق تلك الحملة، وهؤلاء كثر، وهم أغلب شخصيات الرواية.

ونأتي هنا على ما يهمنا وهو تصور سارد الرواية للأتراك. يرد في المدخل تصور عواد نفسه يوم كان طفلاً:

" قال أبي" قم انظر إلى العسكر!" فقمت وقام إخوتي وأخواتي ولحقت بنا أمي. المساء. ونحن على الشرفة نتزاحم شادين بحديدها، والجنود يمرون على الطريق، ثيابهم رثة مبلولة، تنوء أكتافهم بالبنادق وظهورهم بالأعلى، بعضهم في جزمات مقطعة بالية، والأكثرون حفاة تغرق أقدامهم في الوحل".(١٥)

هذه هي صورة الجيش التركي ما بين ١٩١٤و ١٩١٨: جيش مهلهل وتعب ومهزوم، صورة جنود مقتولين تعباً وبرداً وجوعا، وهي الصورة التي تبرزها أيضاً الرواية نفسها. ليس غريباً إذن أن يصدر عن هذا الجيش أفعال شنيعة تتمثل في القتل والتشريد.

تبرز الرواية أيضاً تصور الذات العربية لذاتها، وتصورها للأتراك. حين يتحارب الطرفان يأتي أحد الجنود العرب في الجيش التركي على الفارق بين العرب والأتراك، ويخاطب هذا، وهو كامل، يخاطب المثقف سامي عاصم الذي كان في جيش الثورة العربية الكبرى قائلاً:

" أنا عربي مثلك، لا تقتلني! وقد كنت زاحفاً إلى هذه العباءة لألبسها وأنضم إليكم .. أنا من الشام، حاولت الهرب مراراً من الجيش التركي لمّا كنت في لبنان فلم أستطع. أرسلوني بالرغم مني إلى هنا مع رفاق لي يكرهون الأتراك مثلي .. إن العربي أكرم من التركي. العربي لا يقتل أسيره ولا يجهز على جريحه".(١٦)

(١٥) السابق، ص٧.

(١٦) السابق، ص ١٩٣.

وكامل هذا، حين يذهب إلى قائد الأتراك في العقبة، لكي يطلب منه الاستسلام، لاجئاً إلى الحيلة، يقدم تصور العربي أيضاً عن ذاته:

"وليس من شيم العربي أن يقاتل إلا كفؤة."[١٧] وهذه الصورة تختلف عن تلك التي تقدم للأتراك. حين ينهزم الأتراك يبدون وحوشاً، ويشاهد سامي عاصم هذا بأم عينه، فيرى:

"امرأة قد أوقفوا يديها ورجليها وعلقوها من شعرها، وأخرى على الحضيض قطعوا ثديها، وثالثة فصلوا رأسها من جسدها وركزوا في بطنها عوداً"[١٨]

أهي صور مبالغ فيها؟ وهل يصح فيها قول الشاعر:

والناسُ من يلق خيراً قائلون له

ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل[١٩]

ولئن كان هذا التصور للذات وللآخر تصوراً خاصاً بفترة معينة، فما الصورة التي تبدو للأتراك بعيداً عن عالم الحرب والعسكر؟

يلحظ قارئ الرغيف ثلاث خصائص ينعت بها الأتراك في هذه الرواية، وهي خصائص سوف تظهر في روايات أخرى، مثل رواية زياد قاسم الزوبعة" (١٩٩٤) وهذه الخصائص هي: حب الأتراك الغلمان، وحبهم النساء والذهب، والتعالي على العرب.

يقيم طام ابن وردة كسّار في الرواية علاقة مع راسم بك الضابط التركي، وبفصح النص التالي أن الضابط اعتاد أن يجلس الطفل في حضنه:

" وصل طام إلى منزل الضابط وهو يفكر بكل هذا عالياً. فإذا راسم بك على الشرفة يدخن نارجيلته عابساً مكمد اللون. فوقف أمامه يلهث من الركض، وأراد أن يقفز إلى حضنه حسب العادة، ويفتل له شاربيه فلم يجرؤ ... "[٢٠] وعبارة" أن يقفز إلى حضنه حسب العادة" عبارة دالة.

ويبرز النص التالي حب الأتراك النساء والمال. تذهب زينة لتبحث عن سامي عاصم في السجن فيفتشها الجندي التركي، ولنقرأ:

" فقام الحارس إلى الفتاة يجسها من هنا ومن هناك وهي تتفلت من يديه الوقحتين،

---

(١٧) السابق، ص٢٠١.

(١٨) السابق، ص٢٢٨.

(١٩) القطامي، انظر قصيدته في جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، دار صادر، بيروت، د.ت. ص٢٨٨.

(٢٠) عواد، الرغيف، ص ٥٣.

حتى إذا وصل إلى صدرها أجفلت، فصاح بها، فأخرجت الصرة: أنا أريك إياها.

فلما بصر بالمجيديات انبسطت أساريره على غبطة لا حدّ لها، مشى أمامها إلى غرفة سامي وفتح بابها... "[٢١] .

ويبرز رشيد بك شخصاً يحتقر العرب ويحب النساء. إن العرب في نظره كلاب[٢٢] ويتكرر نعت العرب بالكلاب مراراً[٢٣] على أن موقف النساء العربيات من الجنود الأتراك موقف غير ودي، وذلك لأنهم غلاظ من ناحية ولأنهم فقراء من ناحية ثانية، ولهذا ترفض زينة معاشرتهم، ولكنها تعاشر راسم بك لأنه يملك المال.

تقدم الرغيف أيضاً صورة لما فعله الأتراك بالأرض العربية، وهي صورة سنعثر علها أيضاً في رواية زياد قاسم" الزوبعة". " ومشى في الكرم، قد فعل به الأتراك ما فعلوه بالحقول. قصوا أشجاره وسلطوا بغالهم على عرائشه قضماً ووطأ، وخربوا حاناته التي رصفها بيديه حجراً حجراً ... "[٢٤] ولا يتوانى الأتراك عن تحويل دير مار يوسف إلى ثكنة، وجعلوا من قبوه إسطبلا للخيل[٢٥].

ثانياً: توفيق فياض: الشيخ لافي الملك

ولد توفيق فياض في حيفا عام ١٩٣٩، وتلقى تعليمه الثانوي في الناصرة ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٠. ألقي عليه القبض عام ١٩٧٠ ودخل السجن، وخرج منه في عام ١٩٧٤ إلى الوطن العربي ضمن عملية تبادل أسرى الحرب، وعاش بعد ذلك في بيروت وفي تونس. وقد صدرت مجموعته البهلول" التي فيها قصة الشيخ لافي الملك عام ١٩٧٨.[٢٦]

كتب فياض نصه هذا في زمن النهوض الفلسطيني، بعد أن أصرت م.ت.ف على أن تكون ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني . ونظرة على صورة الآخر؛ التركي والإنجليزي واليهودي والعربي باستثناء جمال عبد الناصر، نظرة على صورة الآخر في كتابات فياض

(٢١) السابق، ص٧٥، وانظر أيضاً ص٩٧.

(٢٢) السابق، ص٩٩.

(٢٣) السابق، ص٩٦.

(٢٤) السابق، ص ١٣٢.

(٢٥) السابق، ص١٥٢.

(٢٦) أعلام الأدب العربي المعاصر، ص ١٠٦١ وما بعدها.

تقول لنا إن صورة الآخر في كتاباته بدت دائماً سلبية[٢٧] ومن تبدو صورته سلبية أيضاً الإقطاعي الفلسطيني الذي يتعاون مع الأتراك، إبان حكم الأتراك، ثم يتعاون مع الإنجليز، إبان حكم الإنجليز. وهو ما تقوله لنا قصة الشيخ لافي الملك"[٢٨].

يعود الزمن الروائي في القصة إلى ما قبل عام ١٩٤٨ بكثير، يعود إلى نهاية حكم الأتراك فلسطين واستعمار هذه من الإنجليز–أي عام ١٩١٨. ولكن النص ينجز، كما لاحظنا، عام ١٩٧٨ أو قبلها بقليل، وكان الفلسطينيون مروا بتجارب عنيفة ابتداءً من النكبة عام ١٩٤٨ وانتهاءً بالحرب الأهلية في لبنان عام ١٩٧٦، وكانت تجربتهم مع الآخرين تجربة مرة وقاسية، ولعل هذه التجربة تركت أثرها على إبراز صورة سلبية للآخر.

ولا تظهر في هذه القصة نماذج فردية تركية. إنها تأتي على ذكر الأتراك ذكراً إجمالياً[٢٩] والشيخ لافي الذي ولد أيام حكم السلطان عبد الحميد ينصب من نفسه ملكاً، وقد قاوم الأتراك والإنجليز والإقطاع الفلسطيني. ولا تختلف صورة الأتراك الإجمالية، من حيث هم عسكر، عن تلك التي برزت في رواية عواد" الرغيف". لنقرأ المقاطع التالية:

" وكيف ظل واقفاً بعد أن أحرق الأتراك القرية"[٣٠]

" وتصديقاً لكلامه، فإنه يروي، أنه عندما كان" الجندرما" الأتراك يشعلون النار في القرية"[٣١]

" مقسماً أنه سيظل يحاربهم إلى أن يخرجوا من بلاد اليمن، بل ومن بلاد العرب كلها.[٣٢]

" وإذا كان حافظ باشا من أتباع الأتراك، فإن رسوله ذو شارب مثل شوارب الأتراك"[٣٣]

---

(٢٧) حول صورة اليهود في نصوص توفيق فياض انظر كتابي" اليهود في الأدب الفلسطيني ما بين ١٩١٣ و ١٩٨٧" القدس، ١٩٩٢، ص٧٨ و ص١٣٤. وحول صورة الأنجليز انظر دراستي" الإنجليز في الأدب الفلسطيني" مجلة جامعة النجاح للأبحاث، عدد ١٣، سنة ١٩٩٩، ص٧٧٢.

(٢٨) توفيق فياض، البهلول، بيروت ١٩٧٨.

(٢٩) هذا التصور الإجمالي للأتراك يغلب على كتابات الأدباء الفلسطينيين. وحول صورة الأتراك في الأدب الفلسطيني انظر كتابي" القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة ما بين ١٩٦٧و١٩٨١" والكتاب صدر في نابلس عام١٩٩٣.ص ٧١.

(٣٠) فياض، البهلول، ص٩.

(٣١) السابق، ص٩.

(٣٢) السابق، ص ١٨.

(٣٣) السابق، ص٢٢.

" فساق الجنود الأتراك كل من صادفوه من شيوخ القرية ونسائها بالسياط إلى مقر حافظ باشا في جنين"[٣٤]

" وسرعان ما شاع في القرية أن جمال باشا السفاح، قد جاء على رأس جيش من دمشق لتأديبه وتعليقه مع جميع رجاله وكل من يأويهم، على أعواد المشانق التي راح الأتراك ينصبونها في كل القرى، كي يراهم الناس جميعاً فراح أهل البارد يفرون بعيالهم إلى المغاور في الجبال" [٣٥]

" كانت المجاعة قد بدأت تفتك بالناس منذ السنة الثانية للحرب، إذ لم يترك الجنود الأتراك لدى الفلاحين شيئاً إلا أخذوه.."[٣٦]

ونحن هنا نرى صورتهم تشبه تلك التي برزت في الرغيف: الأتراك حكاماً للبلدان العربية كانوا ظالمين قساة لا يرحمون يقتلون ويحرقون ويدمرون ويخلفون وراءهم الخراب. وما يشبه أيضاً صورتهم في" الرغيف" نعت السارد الأتراك بأنهم ذوو شوارب مميزة"[٣٧]

وما يتطابق في نص فياض ونص عواد هو نظرة كل منهما إلى الإقطاع في بلد كل منهما؛ في فلسطين وفي لبنان. في الرغيف تطالعنا صورة إبراهيم فاخر الذي يقف إلى جانب الأتراك[٣٨] ونقرأ في" الشيخ لافي الملك" المقطع التالي الذي يبين نظرة السارد إلى العائلات العربية الإقطاعية الفلسطينية:

" حتى تنطح أفندية دار السعد وعبد الهادي من جنين وأم الفحم، ومعهم دار العبوشي وجرّار هذه المرة، الذين راحوا يعدون العدة لاستقبال الإنجليز، بحجة أنهم حرروا البلاد من الأتراك."[٣٩] بعد أن كانوا يقفون، من قبل، إلى جانب الأتراك.

وخلافاً لعواد المثقف ودارس الحقوق، نجد فياض يختار بطله الذي يقاوم الاحتلال التركي والاحتلال الإنجليزي من فقراء الناس وبسطائهم، لا من مثقفي المجتمع كما هو حال سامي عاصم في الرغيف.

---

(٣٤) السابق، ص ٢٤.

(٣٥) السابق، ص ٢٦.

(٣٦) السابق، ص ٢٦.

(٣٧) يرد القول التالي في شوارب الأتراك:" وبانَ شارباه المعقوفان"، انظر عواد، الرغيف، ص١٨٦. وما ينعت به الأتراك في نص عواد عدمُ إجادتهم اللغة، ويتفق هذا وما تبرزه لهم المسلسلات العربية.(مسلسل شام شريف مثلاً الذي عرضه التلفاز الأردني في رمضان عام ٢٠٠٠).

(٣٨) عواد، الرغيف، ص ١٧٨.

(٣٩) فياض، البهلول، ص٣٦.

ثالثاً: حنا مينه في ثلاثيته

ولد حنا مينه في اللاذقية في سورية في عام ١٩٢٤، ونال الشهادة الابتدائية وهو ذاتي التثقيف. كان حلاقاً وبحاراً لفترة معينة، ثم غدا كاتباً وصحافياً ومترجماً لوزارة الثقافة في سورية.[٤٠]

ويعد حنا مينه من أبرز الروائيين السوريين، إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق، ولم تخل نصوصه الروائية من الإتيان على الأتراك، وقد وعى ما فعله هؤلاء في بلاده يأتي في كتابه" كيف حملت القلم"(١٩٨٦) على ذكر الأتراك فيكتب:

" ولأن الأتراك اغتصبوا لواء الاسكندرونة، وعانى العرب مظالم لا حدّ لها على أيديهم، وكانت عائلتي قد تشردت من السويدية إلى الأناضول في" سفر برلك"، ثم أمضت أياماً صعبة في الحرب العالمية الأولى، حين سيق والدي إلى الجندية بغير سلاح، أي للخدمة في شق الطرقات ومد سكك الحديد وإقامة الاستحكامات، فقد نقمت على الأتراك، وخاصة العرقيين أو الطورانيين، وكتبت قصة قصيرة بعنوان" الذئاب التركية" اسم بطلها نامق بك، وهكذا صار تعمق الإحساس بالوعي، بعمق إحساسي بفاجعة التركيبة الاجتماعية للمجتمع الطبقي، وصار الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان، واستبدادية المستشارين الفرنسيين وخيانة بعض السوريين من صنائع فرنسا، مثار نغمة مضاعفة"[٤١].

لم تتوفر قصة" الذئاب التركية" لي، ولكن المرء، وهو يقرأ نصوص حنا مينه التي أتى فيها على فترة حكم الأتراك للعالم العربي يقرأ عن ظلمهم واستبدادهم، وهذا ما عبر عنه شخصياً في الفقرة السابقة. غير أن حنا مينه لا يكتب باستمرار عن الأتراك وكأنهم كل واحد متشابه. إنه يميز بينهم، وهو في كتابته عنهم ينطلق من منطلق يساري يميز فيه بين مستغِل ومستغَل، بين جلاد وضحية، بين متعصب ورافض للتعصب، بين حاكم ومحكوم، ولا عجب أن أنجز حنا مينه كتابين عن الشاعر التركي اليساري ناظم حكمت عبر فيهما عن إعجابه بهذه الشخصية التركية المناضلة[٤٢].

---

(٤٠) حول حياته انظر: أعلام الأدب العربي المعاصر، ص ١٢٨٥.

(٤١) حنا مينه، كيف حملت القلم، بيروت، ١٩٨٦، ص١٥.

(٤٢) الكتابان هما: ناظم حكمت: السجن المرأة، الحياة، وقد صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وناظم حكمت ثائراً، وقد صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٨٠.

ويجـــدر هنـــا الوقوف أمام ثلاثيته " بقايا صـــور " (١٩٧٥) و " القطاف "(١٩٨٦) و " المستنقع "(١٩٧٧) ، وقد حاول فيها أن يرسم " حياة طفل من خلال حياة عائلة، هذا الطفل هو أنا والعائلة عائلتي، وذلك التاريخ هو تاريخ العشرينات والثلاثينات، من هذا القرن(ق٢٠) ، وفيها ظهرت أولى بوادر الوعي والتمرد في المدينة والريف السوريين". [٤٣]

ثلاثية حنا مينه هي، إذن، عمل روائي يدرج تحت باب رواية السيرة الذاتية[٤٤]، وعليه فإن أنا المتكلم هي أنا حنا مينه نفسه يقص عن ذاته وعن عائلته وعن شعب سوريا. وهو حين يقص يسترجع زمناً مضى وانقضى ومرّ عليه سنوات طويلة تقترب من الأربعين عاماً. إنه يقص عن الطفولة بوعي الناضج، ومما لا شك فيه أنه يقدم رؤيته في عام١٩٧٥ لا في عام١٩٣٠ أو١٩٤٠. لا يكتب هنا عن الأحداث في لحظة جريانها وإنما يستعيدها ليكتب عنها في زمن آخر، زمن تحرر من الاستعمار.وهكذا نجده مثل عواد، ومثلهما فياض، يسترجعون زمن حكم الأتراك حين يكتبون عن هؤلاء. ولئن كان عواد ذا نزعة قومية، كما يتضح من نصه حين يكتب عن عرب مقابل الأتراك، ولئن كان فياض ذا نزعة وطنية لها امتدادها القومي،وهو ما يبدو في نصوصه حيث يكتب عن ظلم أحاق بأهل فلسطين، فإن حنا مينه ذو نزعة يسارية، وهو حين يكره الأتراك فإنما يكره منهم العرقيين الطورانيين المتعصبين،وحين يأتي على الذات القومية فإنه لا يراها جسداً واحداً متكاتفاً متعاضداً، إنما

يراها، مستغِلين ومستغَلين، أغنياء وفقراء، إقطاعيين وفلاحين، بل إن الدرك الوطني لا يختلف عن الدرك التركي، وهذا ما يبدو واضحاً في الثلاثية وضوحاً لا لبس فيه.

لم يأت مينه في الجزء الأول " بقايا صور " على نماذج تركية بشرية لها ملامحها الخاصة. وذكر الأتراك ورد في الصفحات الأولى من الرواية. تحدث الأم ابنها عن أخيها، فتقول:

" خالك يا بني أقسم ألا يأكل من قروانة الأتراك. وبرّ بقسمه فلم يأكل منها. كانوا يسوقونه إلى أعمال السخرة، لأن السلاح ممنوع على أمثاله. وكان يأنف من السخرة ويتملص بطرق مختلفة ويهرب .."[٤٥]

يبرز مينه في الجزء الثاني " المستنقع " نموذجاً بشرياً تركياً. إنه يكتب عن شخص عرفه عن قرب وأعجب به، هنا تبدو الشخصية التركية ذات ملامح فردية، وهي شخصية لا

---

(٤٣) انظر أعلام الأدب العربي المعاصر، ص ١٢٨٥.

(٤٤) حول هذا انظر: يمنى العيد: فن الرواية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، بيروت، ١٩٩٨، ص٧١.

(٤٥) حنا مينه، بقايا صور، بيروت، ١٩٩٧ ط٦، ص٦١.

صلة لها بالاستعمار أو الاحتلال، عدا أن معرفتها تمت في زمن آخر، زمن كان الأتراك فيه قد خرجوا من أكثر بلاد الشام. يصف حنا مينه هذه الشخصية فيقول:

" كان ربعة، أفطس الأنف، أبيض البشرة، دقيق التقاطيع، حاد الشخصية، يلبس قُلبقا، وسترة فوق صدرية مخملية، وبنطلوناً أنيقاً من نفس سترته أو من لون ينسجم معها، وهذا، ذا كعب عال خلافاً للزي الشائع. باختصار كان أنيقاً في غير إفراط، رقيق البنية، يدخن كثيراً، وله أظافر مقلمة نظيفة .... وتلوح من هيأته كلها أمائر جدية، ويبدو غالباً في وضع المتأمل أو المنكر، ويجلس عصراً في خمارة يونانية .."(٤٦)

ويبدو هذا التركي المتعلم:

" متأملاً مفكراً سارحاً وراء خيالات ورؤى عزيزة عليه، لا يفصح عنها لأحد، ولازم مجلسه في الأمسيات عنه ذلك الخمار اليوناني، غير مبال بما يمكن أن يحمله إليه مجلسه هذا من حرج باعتباره مديراً لمدرسة حكومية .."(٤٧)

وهكذا نرى صورة التركي هنا، خلافاً لصورة الأتراك في النصوص التي أنجزت بعد عام ١٩١٨، صورة سلبية. يتعاطف أنا القاص–أي مينه– مع هذا المتعلم، وحين يختفي فجأة من المدرسة والمدينة يترك في الطفل" تأثيراً حلواً من المودة الخالصة والإعجاب البالغ".(٤٨) ويتابع مينه قائلاً:

" لم اصدق ما قيل عنه، ومن المؤكد أنه كان فناناً أكثر منه معلماً، وربما كان يضيق بمهنة التعليم، وربما كانت له حبيبة أو خطيبة في مدينة بعيدة، أو له صلات وأصدقاء وعلاقات تستأثر على هذا النحو بأفكاره، ومهما يكن فإنه كان إنساناً غير عادي، كان كائناً، فيما قيل إلي عظيماً ونادراً"(٤٩)

ويتابع أيضاً:

" ولقد سمعت، فيما بعد، أنه عاد إلى تركيا، وأنه دخل السجن بسبب أفكاره التقدمية، وأنه عمل في الصحافة، وصار كاتباً مشهوراً وأنه تعرض لكثير من الملاحقات والمضايقات وظل على جديته وغرابته ونزعته الفنية، حياة وإبداعاً. ولم يمهله العمر. خانه، ومات على

(٤٦) حنا مينه، المستنقع، بيروت، ١٩٩٧ ط٦، ص٣٧٨.

(٤٧) السابق، ص٣٨١.

(٤٨) السابق، ص ٣٨١.

(٤٩) السابق، ص ٣٨٢.

نحو ما، في عز الشباب"[٥٠]

وليس إبراز هذه الصورة بمستغرب من كاتب يساري النزعة، وقد عمق مينه هذه الصورة في دراساته التي أنجزها عن ناظم حكمت.

ما يجدر الإشارة إليه، في أثناء الكتابة عن صورة الأتراك في ثلاثية مينه، بخاصة حين يكتب عن الأتراك مســتعمرين، ما يجدر الإشارة إليه هو ما ورد في المقطع الثامن من "القطاف" [٥١]. يصور مينه هنا الدرك الوطني السوري تصويراً سلبياً. الدرك الوطني هنا مثل الجنود الأتراك. إنهم قساة وغلاظ وظالمون وليسوا بأحسن حالاً من الجنود الأتراك في نهاية حكم هؤلاء لبلاد الشام، كما أبرزت صورة هؤلاء رواية عواد وقصة فياض. يقص والد الطفل – أي والد حنا مينه عن تجربته مع الأتراك فيقول:

" كنت أقع بين أيديهم، فينقضون عليّ، ويعيدونني إلى الخدمة، وما هي الخدمة؟ إنها ليست حمل السلاح. إنها سخرة. العمل في شق الطرقات مدّ السكك الحديدية وحراسة المحطات، وكنا حفاة عراة جياعاً. كانت القروانة، وهي الوجبة الوحيد في اليوم، عبارة عن ماء يغلي فيه حبات من العدس .." [٥٢]

فيم يقص عن الإقطاع السوري قائلاً:

" والوالد وقف إلى جانب المرأة. قال إنها غير سارقة . قال : إنها فلاحة، وليس من الحق أن يتهم الفلاح بالسرقة لمجرد أنه فلاح. وحين أمر المطعون بتفتيشها حماها، وقادها إلى بيت حيث ينتظرها أطفالها، كان شهماً في عالم نذل، والعالم النذل لا يتسع للشهامة، يضيق بها، يضطر صاحبها إلى دفع الثمن، ووالدي يدفع الثمن، وقد يتحمله، بل من المؤكد أنه يتحمله، فكل رجل وكل امرأة في دنيا الإقطاع هذه، تحمل وتحملت العسف والجور، حتى أصبحا ممتزجين بلقمة الخبز وشربة الماء. [٥٣]

والصورة التي يظهرها مينه لحياة الفلاحين ومعاناة هؤلاء من الإقطاعيين لا تختلف عن تلك الصورة التي أبرزها عواد لحياة الفقراء في روايته الوارد ذكرها والمعاينة هنا.

---

(٥٠) السابق، ص ٣٨٢.

(٥١) حنا مينه، القطاف، بيروت، ١٩٩٧، ط٣.

(٥٢) السابق، ص ٣٢٥.

(٥٣) السابق، ص ٣٣٢.

رابعاً: زياد قاسم في الزوبعة.

صدرت الطبعة الأولى من رواية الأديب الأردني زياد قاسم( )" الزوبعة" في عام ١٩٩٤، وسرعان ما صدرت منها طبعات ثلاثة أخرى[٥٤] ولم تَحْظَ، كما يذهب نزيه أبو نضال، بدراسات كثيرة[٥٥]، ويرى عبد الله رضوان[٥٦] أن مرجعية زياد قاسم في بنائه الرواية تقوم على اعتبار الثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف حسين بن علي إطار مرجع للرواية[٥٧] وتمثل الزوبعة التجربة الواقعية الأكثر أهمية وشمولاً في الرواية الأردنية[٥٨]، ويمتد الزمن الروائي لهذه الرواية، ولجزئها الأول تحديداً، ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر وعام ١٩١٨، عام انتهاء حكم الأتراك البلاد العربية.

وكما الروايات والقصص السابقة المعاينة هنا يصور الأتراك تصويراً إجمالياً، ولكنها –أي الرواية– تحفل بنماذج بشرية فردية لم تحفل بها أي من الروايات السابقة، وتحضر هنا النماذج في الرواية حضوراً لافتاً، حتى أنها لتظل في ذاكرة القارئ لتميز بعضها، بما يثير الدهشة، وهذه الشخصيات هي أشرف التركي وزيد وجمال باشا السفاح، وكما يلاحظ فبعضها شخصيات روائية قد يكون لها نصيب من الواقع، وبعضها شخصيات تاريخية يعرفها قارئ التاريخ العربي في السنوات الأولى من القرن العشرين.

ويبدو الأتراك من حيث هم حكام للوطن العربي، في تلك السنوات، كما بدوا في " الرغيف" وفي" الشيخ لافي الملك" وفي ثلاثية حنا مينه. وكثيرة هي المواقع التي يبدون فيها قتلة غلاظاً وقساة، وتأتي الرواية على ذكر معارك حدثت بين بعض القبائل في الأردن وبين الجيش التركي.

ولئن كان أكثر الروائيين السابقين كتبوا عن حضور الأتراك في العالم العربي، فإن زياد قاسم يفرد صفحات من روايته ليكتب عن الحياة في المدن التركية، وبخاصة الآستانة،

---

(٥٤) زياد قاسم، الزوبعة، عمان/ بيروت، ١٩٩٨، ط٤؟

(٥٥) انظر: نزيه أبو نضال، علامات على طريق الرواية في الأردن، عمان، ١٩٩٦، ص١٩٩، وقد أتى فيها على صورة تركيا في الرواية. ص ٢٠٦.

(٥٦) انظر عبد الله رضوان، تجليات الواقع الاجتماعي في الرواية الأردنية، في كتاب(دراسات في الرواية العربية،١٩٩٨) ١٧.

(٥٧) السابق، ص١٩.

(٥٨) السابق، ص ٢٠.

وفي هذه نتعرف على حياة المدينة، التي تحفل بمظاهر الفجور والدعارة، مثلها مثل باريس، في حينه، في الرواية، وتبدو لنا صورة رجل تركي يقوّد على زوجته وبناته مقابل المال، كما تبدو لنا صورة بعض الزعماء الأتراك الذين يميلون إلى اللهو والطرب والزنا. الأتراك، كما يبدون هنا، منهم القواد واللوطي ومحب الذهب والنساء، وهم ليسوا عساكر وحسب.

ولئن كنا نلاحظ في الروايات السابقة كتابة عن أتراك مقابل عرب، وعن إقطاع يتعاون مع الأتراك، فإننا هنا نقرأ هذا، ولكننا أيضاً نقرأ عن إقطاع عربي يتصاهر وإقطاع تركي. ثمة علاقة زواج ينجم عنها قرابة. إن خالد الحجاج ابن القدس هو من أم تركية، وأخت هذه متزوجة في الآستانة من زوج تركي، وخالد هو ابن خالة زيد التركي الأب والأم معاً. ولكن علاقة القرابة سرعان ما تتأثر في زمن العداء القومي.

وتجدر الإشارة، قبل الوقوف أمام النماذج التركية، إلى أن العرب هنا ليسوا ملائكة. إنهم بشر يعانون الفقر والجوع، وهم مسلمون ونصارى وفلاحون وبدو وإقطاعيون، ولكل عالمه الخاص وإرثُه الحضاري. يكرهون بعضهم، ولكنهم يتعاونون أيضاً مع بعضهم، وقد يتحاربون وقد يتهادنون.

وتعرض الرواية نماذج تركية أبرزها **أشرف التركي**، وهو الأكثر حضوراً في الرواية. واشرف هذا هو ابن أسرة تركية فقيرة جداً، يغتصبه، وهو صغير، شيخ فيسبب له عقدة. ويدفعه فقره واغتصابه إلى السرقة واغتصاب الأطفال وقتلهم بعد أن يجعل منهم رهائن يقايض أهلهم بهم من أجل الحصول على الذهب الذي يغدو مطلباً ملحاً يبحث عنه حتى يصرف حياته ويقود رجاله. ويصبح أشرف لصاً وقاطع طرق ومجرماً يعرف اسمه في بلاد الشام وفي الحجاز وفي العراق وفي تركيا نفسها. يُغير ويرعب ويسرق ويقتل دون أدنى مساءلة لضميره الميت. لقد حولته عقدة الطفولة وعقدة الفقر إلى وحش كاسر يطرب لضرب الخناجر ويفرح لاغتصاب النساء ويسر لدم الأطفال ينز من شرجهم. وحين تسوء العلاقة بين الأتراك والعرب يعتمد عليه جمال باشا السفاح يطلق سراحه من السجن ويموله بالذهب والسلاح ليعيث في البلاد العربية فساداً، وتكون نهايته على يد توفيق صاحب الأصابع الفولاذية، حيث يخرج له أمعاءه ويتركه في الصحراء يموت.

واشرف التركي، في الرواية، شخصية رئيسية، شخصية لم يكن له مثيل في بقية الروايات. يصفه السارد في بعض صفحات الرواية على النحو التالي:

" حَلَّ القحط بأشرف التركي قبل أن يحل بالدولة التركية، بسبب جشعه وغدره ونزعته

الاستقلالية. فطيلة حياته الإجرامية لم يتخذ وسيطاً ولا وكيلاً ولا شفيعاً. كان أكبر غادر وأشد منتقم من القادرين" [٥٩]

وفي موطن ثان:

" كان أشرف ذا عقلية تنظيمية عجيبة وذا جرأة وقوة وصلابة. وأهم ما كان يميزه في عملياته هذه حقده التام على الناس، والذي أراد جمال باشا استثماره لإثارة الرعب والبلبلة في المناطق العربية، لإلهائهم عما يجري حولهم، والانتقام منهم بسبب توجههم التحرري ونزعتهم الاستقلالية" [٦٠]

وفي موطن ثالث:

" فصار ورجاله يقطعون طريق القوافل فينهبون ما يستطيعون، ويغتصبون الفتيات ويلوطون بالأطفال، ولا يتركون خلفهم أحداً على قيد الحياة". [٦١]

الشخصية التركية الثانية هي شخصية زيد. وحين كان زيد يزور خالته في القدس، يوم كان طفلاً، لم يكن يرى نفسه مميزاً. لقد كان زوج خالته العربي ينفق عليه، وهو في باريس. ولكنه، فيما بعد، ينقلب ويتعالى على خالته وابن خالته ولا يتوانى عن الإساءة إليهما معاً، بل إنه لا يكترث لخالد يوم قدم هذا إلى المحاكمة وشنق. زيد متقلب وماجن. ولئن كان يتعالى على العرب فإنه أيضاً يتعالى على الأتراك. ولنلحظ العبارات التالية التي تأتي على لسان السارد:

" وكان يقابل المحتفين به من أتراك وعرب بتعال وعنجهية" [٦٢] و " رتب له والي دمشق ساعات من اللهو لم يحلم بها طيلة حياته الماضية في الآستانة أو باريس، فقد فضّ في بيت الوالي بكارتيْ فتاتين لم تتجاوزا الخامسة عشرة. زاد هذا من تعاليه. " [٦٣]

" اللّه فوق وتركيا تحت"

ويعقب السارد على شخصية زيد قائلاً: " ما أسهل أن ينقلب زيد!"

وحين يقابل خالته، في القدس، وتسأله هذه لماذا لا يزورها، وكأنما تقول له إنه متعال،

---

(٥٩) زياد قاسم، الزوبعة، ص ٤٦٢.

(٦٠) السابق، ص٤٨٣.

(٦١) السابق، ص٣٨٢.

(٦٢) السابق، ص ٣٤٠.

(٦٣) السابق، ص٣٤٠.

يرد:

" من سوانا يا خالتي يعرف الأصول. لا الفرنسيون ولا الإنجليز. لقد ساد الأتراك العالم بتواضعهم. الكبير كبير بتواضعه، والصغير صغير بتعاليه". [٦٤]

ولكنه حين يريد أن يعين مديراً للمعارف في القدس يسأل مساعده:

" هل هو تركي أباً عن جد؟"

الشخصية التركية الثالثة في الزوبعة هي **شخصية القائد التركي جمال باشا** السفاح. ولا تختلف صورتها هنا عن تلك التي عرفناها من خلال كتب التاريخ، ولكنها تتجسد هنا أكثر، وتبرز جمال باشا سفاحاً وحاكماً لا يتوانى لحظة في التعامل مع المجرمين العتاة من أجل تنفيذ مخططاته. يخرج أشرف من السجن ويعطيه الذهب ليعيث في البلاد فساداً، ويتعامل مع اليهود ممثلين في(مال صهيون) وينظر إلى العرب على أنهم:

" حفاة يرتدون فساتين رثة ويريدون الثورة على تركيا"[٦٥] والعرب بطبعهم خونة غدارون"[٦٦]

ولئن كان ينظر إلى العرب هذه النظرة فإنه يرى الإنجليز:

" والإنجليز ليسوا أذكياء على الإطلاق. إنهم نظاميون أعصابهم باردة كالصقيع، ولكنهم ليسوا أذكياء" [٦٧]

وعلى الرغم من حقده على العرب، كما تبرز ذلك الرواية، إلاّ أنه يتصل بقيادتهم ويعلمها باتفاقية (سايكس–بيكو) ، وقد حصل على الاتفاقية من الروس. [٦٨]

ويترك جمال باشا اليهود يشترون أرض فلسطين لقاء خدمات يقدمها له اليهود.

لربما يجدر، في أثناء قراءة الزوبعة، التساؤل عن الصفات التي تنعت بها الشخصيات التركية، وهي التعالي واللواط والفجور والقوادة. ولربما يجدر مقارنة هذه بما يوجد في عالم الآخرين غير الأتراك، ليعرف فيما إذا كانت هذه خصائص خاصة بالأتراك أم أن الأمم الأخرى عرفت بها.

---

(٦٤) السابق، ص٣٤٤.

(٦٥) السابق، ص٤٧٩.

(٦٦) السابق، ص٤٩٢.

(٦٧) السابق، ص٤٩٢.

(٦٨) السابق، ص٦٢٨.

ويستطيع المرء أن يتتبع هذه الصفات لدي شخوص الرواية الآخرين، قبل أن يبحث عن حضورها في التاريخ.

ولئن كان الشيخ التركي اغتصب اشرف التركي في طفولته، فإننا في الرواية نفسها نشهد حدوث الفعل نفسه من جمّال بدوي حيث يغتصب الطفل فريداً ابن فاتن البغي[٦٩] ويتحول إلى شخص يغتصب الأطفال.

ولئن كانت الآستانة مدينة فيها فجور، فإن الفجور هذا يبدو في أرقى أشكاله في باريس[٧٠]، بل إن مدينة العقبة تشهد بيوتاً تتحول فيها المرأة وزوجة ابنها إلى بغايا[٧١] إن أم شعبان قوادة بامتياز، وزوجة ابنها شعبان بغي من الدرجة الأولى. وأم شعبان لا تختلف عن الرجل التركي الذي كان يقوّد على زوجته وبناته.[٧٢]

ولعل سمة تعالي الأتراك سمة بارزة، وقد لاحظنا أنها تعود إلى زمن الشدياق الذي عبر عنها في نصه الذي صدرنا به هذه الدراسة. ولنتتبع هذه السمة في الرواية:

-حين يعرف القواد التركي ان خالداً عربي تتغير تقاسيم وجهه ويقول بقرف: عربي[٧٣]

- حين يذهب رجا الصليبي إلى المتصرف التركي حتى يفرج عن زعل البدوي يتكلم المتصرف" وقد لاح في لهجته بعض الهدوء والتعالي"[٧٤]

- المسيحيون الأرثوذكس يتعالون على العرب لأن هؤلاء برأي مسيحي أرثوذكسي" لم يكونوا ولن يكونوا رعية وفيه للمسيح[٧٥]".

- تعالي البدو على الفلاحين واحتقارهم[٧٦]

- تعالي العرب على العرب ممثلاً في تعالي زينات الشامية على زوجها وأهل زوجها في القدس [٧٧].

- مدرس شيخ في القدس يتعالى في حديثه[٧٨]

---

(٦٩) السابق، ص٢٢٩. وانظر ص٤٥٥ وما بعدها.

(٧٠) السابق، ص٩٧ وما بعدها.

(٧١) السابق، ص٢٢٨ وما بعدها على سبيل المثال فقط.

(٧٢) السابق، ص ٨٥-ص٩٦.

(٧٣) السابق، ص٨٧، وص٥٥٥.

(٧٤) السابق، ص١٥٠.

(٧٥) السابق، ص ١٦٤ و ١٦٥ و ص١٧٠ و ص٤٩٠.

(٧٦) السابق، ص٢٢١.

(٧٧) السابق، ص٢٧٦، وص٣٥٥.

(٧٨) السابق، ص٢٩٩.

- تعالي الشركس على العرب واحتقارهم[٧٩]

- المسيحية هند زوجة الشيخ تقاطع فرحان المسيحي بتعال .[٨٠]

- الجنود الأتراك يتعالون على السكان[٨١]

- البنّاء يتعالى على العامل [٨٢]

-فرحان الفلاح المسيحي يشعر بتعال حين ينتصر[٨٣]

بل أن النص الروائي ، حين يكتب عن تعالي الأتراك ، لا يخفي مرجعيته ، فزياد قاسم قرأ الشدياق ويبدو أنه أفاد منه في بناء نصّه[٨٤] وتحديداً في أثناء الكتابة عن باريس. يرد في الزويعة :

منـــــذ ليلة الباشا وباريس تعني لخالد شيئا مختلفا . فهي لم تعد مدينة قذرة منفرة تمتلئ نجاسة وفجورًا كما كتب الشدياق وغيره عنها بل غدت مدينة الفن والنساء المتأنقات السافرات [٨٥]

وإذا ما بحثنــــا عن هذه الظواهر في التاريخ عرفنا أنها كانت موجودة منذ أقدم العصور ، مثلها مثل حب الذهب والفجور واللواط ، وقد عرفها العرب أنفسهم : تعالى العرب على غير العرب في العصر الأموي يوم كانوا

أقوياء منتصرين، وعرفوا الفجور واللواط في العصر العباسي ، وأشعار أبي نواس دليل على ذلك ، وأحب العباسيون الذهب حباً جما ، وأبو العباس السفاح مثال على ذلك .

---

(٧٩) السابق، ص٣٠٩، وص ٣١٢.

(٨٠) السابق، ص٣٦٦.

(٨١) السابق، ص٣٨٨.

(٨٢) السابق، ص ٤٠١.

(٨٣) السابق، ص٥٤٥.

(٨٤) السابق، ص٩٨.

(٨٥) السابق، ص٩٨. ولمن يرغب في معرفة" باريس في الأدب العربي الحديث" يمكنه قراءة كتاب د. خليل الشيخ الصادر عن دار الفارس في الأردن، في عام ١٩٩٨.

الخلاصـــة

أنجزت النصوص المعاينة، كما لاحظنا، بعد زوال حكم الأتراك وفي زمن الدولة الوطنية، وغالباً ما كانت تكتب عن الأتراك يوم كان هؤلاء يحكمون الوطن العربي الذي عانى في فترة حكم الأتراك الأخيرة من الفقر والقمع والتخلف، وهذا جعل العرب لقمة سائغة لمستعمر جديد هو بريطانيا وفرنسا.

وما وصف به الأتراك من سلوكات شائنة، مثل الزنا واللواط وحب الذهب والقوادة وصف به غيرهم أيضاً، في الروايات نفسها. وكانت الكتابة عن الأتراك، بالإضافة إلى أنها أنجزت في زمن الدولة الوطنية، تخضع لرؤى الكتاب وتوجهاتهم، ولئن كانت النماذج التي برزت بدت غالباً سلبية، فإننا لم نعدم وجود نماذج إيجابية، وهذا ما بدا في نص حنا مينه الروائي.

ولربما يتساءل المرء: ماذا عن صورة الأتراك والكتابة عنهم فيما بعد عام ١٩١٨؟ ألم يكتب أي كاتب عن الأتراك أو عن نماذج بشرية تنتمي إلى ما بعد ١٩١٨؟ إن ذلك يشكل، في النصوص المعاينة، استثناء، وهو ما بدا في نص مينا. ولا أعرف شخصياً نصوصاً أخرى مشهورة أتت على الحياة في تركيا بعد عام ١٩٢٤ ليكتب أصحابها عن تركيا العلمانية. ويبدو أن اتصال العرب بالغرب، ودراسة كثير من الكتاب هناك، مثل توفيق الحكيم وسهيل إدريس والطيب صالح، هو ما جعلهم يكتبون عن نماذج أوروبية. وإن المرء ليتطلع إلى قراءة نصوص تصور الأتراك بعيداً عن عالم السياسة وبعيداً عن الماضي المؤلم، ليرى صورة هؤلاء كما يبدون عليه في حياتهم اليومية، وفي عالم لا تحكمه علاقات توتر وسيطرة جماعة على جماعة.

الخلاصـــة

يخلص المرء ، بعد قراءة ما كتب عن الأتراك في زمن الدولة الوطنية ، إلى أن صورتهم كانت سلبية غالباً ، وربما يعود سبب ذلك إلى ما كانت عليه أوضاع الشعب العربي في نهاية الحكم العثماني للبلدان العربية ، وهي أوضاع لم تكن حسنة على أية حال ، ولكن المرء لا يعدم وجود تصور إيجابي يشذ عن الصورة الغالبة، ولعل ذلك يعود إلى الفكر الذي ينطلق منه الكاتب ، وهو ما لاحظناه لدى حنا مينه يساري التوجه، حيث لم يلجأ إلى التعميم وإطلاق القول .

تَخَيّل تَخَيُّل المُتَخَيِّل

تصور العرب لصورتهم في ذهن الأتراك

إعداد

د. عادل الأسطة

جامعة النجاح الوطنية

كلية الآداب/قسم اللغة العربية

تَخَيُّل تَخَيُّل المُتَخَيَّل

تصور العرب لصورتهم في ذهن الأتراك

لا تظهر النصوص الروائية، غالباً، تصور الذات لذاتها أو صورة للآخر وحسب، فهي أحياناً تبرز تصور الاخر للآخر الذي تخيلها أو كتب عنها. ونحن في النصوص المعاينة، كما لاحظنا، أمام ذات تكتب عن ذاتها القومية، وتبرز هنا تصورها لآخرها، وأمام سارد يعرض لنماذج الآخر.

ويبدو تخيل المتخيل في النصوص الأربعة أوضح ما يكون في"الزوبعة"، إذ لا تبـــرز النصوص الأخـــرى، إلا ما ندر وهو ما يبدو في" الرغيف" ، تصور الآخر فيها للعرب.

وكما أشرت، تضم الذات القومية في " الزوبعة " البدوَ العربَ والإقطاعَ في منطقة بلاد الشام والفلاحين؛ مسيحيين ومسلمين، وسكان المدن التي تقع في المنطقة العربية؛ دمشق والقدس وعمان-قبل أن تصبح مدينة- والعقبة وبغداد ... الخ، وأما الذات غير القومية، وهي هنا آخر العرب، فتشمل الأتراك والأرثوذكس اليونان والفرنسيين والإنجليز والشركس الذين جاءوا إلى الوطن العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قبل أن يصبحوا جزءاً من الذات القومية، كما هم الآن حيث يعدون عرباً.

وتحفل" الزوبعة" بنماذج غير عربية، من أتراك وفرنسيين ويونانيين وإنجليز، من هؤلاء مَنْ له حضور رئيس في الرواية، ومنهم من لا حضور له إلا قليلاً، وإذا ما اســـتعرنا مصطلحات نقد الرواية، قلنا إن بعض هؤلاء يعدون شخصيات رئيســـة، وبعضهم شـــخصيات ثانوية. ولئن كنت، من قبل، توقفت أمام النماذج التركية، لأن الدراسة تبحث عن الأتراك، فإنني سأبرز تصور غير العرب للعرب، كما يقدمها زياد قاسم.

ويرسم الكاتب شخصيات عربية وأخرى غير عربية، ويترك لها، أحياناً، حرية التعبير عن ذاتها وعن رؤيتها لآخرها، وإن كان لا يبدو سارداً محايداً، أو سارداً يكتفي بتصوير الآخرين من خلال عدسة كاميرته، فهو يبدو غالباً سارداً كلي المعرفة وسارداً

غير محايد، إذ نقرأ تعليقاته على سلوكات شخوصه وتصرفاتهم، ولربما يدفع هذا المرءَ إلى التساؤل عن إحاطة هذا السارد بتلك العوالم والشخوص التي كتب عنها، وما هي المراجع التي اعتمد عليها في تقديم عالمه المتنوع المترامي الأطراف؟

ولئن كان هذا، حقاً، يحتاج إلى دراسة، إلاّ أن ما يهمني هنا هو ما يتعلق بالصور الذهنية المتبادلة، فلئن كان الكاتب يبرز لغير العرب تصوراً ما، فإنه يترك لهؤلاء، – أي لغير العرب – المجال لأن يفصحوا أيضاً عن رؤيتهم للعرب، فكيف بدت صورة العرب في أذهان الآخرين؟

ولن أكتب هنا عن صورة العرب كما قدمها السارد في الرواية، لأن الشخصيات العربية ذات حضور واسع وتحتاج الكتابة عنها إلى صفحات طويلة، وليس هذا مرماي، إذ هدفي هو أن أكتب عن صورة الآخر، وهذا ما أبرزته في الجزء الأول من الدراسة، وما سأبرزه هنا يعد تمماً ومكملاً للجزء الأول.

ينظر الجندي التركي إلى المسيحي العربي على أنه كافر(ص١٣) ، وأما الصواف التركي الذي يقيم في الآستانة ويقوّد على زوجته وبناته فينظر إلى العرب بقرف(ص٨٧) وأما جمال باشا السفاح فيرى العرب " حفاة يرتدون فساتين رثة ويريدون الثورة على تركيا "(ص٤٧٩) وحين يخسر هذا الحرب ويتذكر ما ألم به ويبحث عن الأسباب يرى أن دور العرب في مساعدة الإنجليز كان سبباً مهماً في خسارته، وهكذا ازداد نقمة على العرب ورأى فيهم " الأفعى التي تسكن فراشه" وأنهم بطبعهم خونة غدارون " (٤٩٢) والعرب في نظر جاويش تركي حمقى (ص٥٠٢). ويبدو أن نعت العرب بالخونة والغدارين تعززت منذ بداية القرن العشرين، وذلك لتمرد العرب على الأتراك ووقوفهم إلى جانب الإنجليز. ويرى جمال باشا في البدو أعداءً داخليين للأتراك، وأنه يمكن السيطرة عليهم ممن خلال الذهب لأن " إيمان البدو بالذهب أكثر من إيمانهم بالأنبياء. ولورنس الإنجليزي الذي وصلت شهرته الآفاق لم يستمل القبائل البدوية بسبب زرقة عينيه، وإنما بسبب لمعان ذهبه الإنجليزي" (ص٥٩٠) ويتكرر وصف البدو بحب الذهب، فعرب العقبة كانوا يتوقعون الإنجليز وذهبهم، فجاءهم " عربان مستعدون للقتل من أجل الذهب "(ص٥٩٠). وكنا لاحظنا أن الأتراك يحبون الذهب، ولا يختلف اليهود عن هؤلاء.

ونظرة الاحتقار هنا للعرب، كما تبدو من خلال أعين الأتراك في الرواية،

ليست مقتصرة عليهم. يأتي الروائي على المطران الأرثوذكسي اليونان ويشير إلى أنهم لا يرغبون في أن يكون بينهم عرب، وبخاصة البدو، وحين يريد الأب سمعان أن يغدو راهباً في الدير، يرفض الأرثوذكسي ذلك، على الرغم من وجود الأب جابر الكاهن العربي الوحيد في الدير، ويعقب أحد المطارنة على عرض الأب سمعان:

"مسيخ. مسيخ. كل أرابي موش قادر ياكل بصير يقول مسيخ"(ص١٦٤)

ويعقب السارد:

" فالعرب برأيه لم يكونوا يوماً ولن يكونوا رعية وفية للمسيح" (ص١٦٥) و " كان يعتبرهم عالة على الطائفة وطقوسها الرفيعة التي هي من حق أبناء اليونان وحدهم"، والعرب جوعى وكذابون. وحين يقارن الكاهن جابر بين البروتستنت والكاثوليك يكاشف إيليا في نظرة الأرثوذكس اليونان للعرب:

" الأمر من ذلك كله احتقار البطاركة الأرثوذكس للعنصر العربي وعدم السماح لهم بالترهبن في أخوية القبر المقدس ومنعهم من انتخاب الأساقفة والمحاكم الكنسية بينما البطاركة اليونان منغمسون في ملذاتهم وشهواتهم"(ص١٧٠) ويتكرر الحديث في الرواية في موطن آخر حيث يظهر أيضاً تعالي الأرثوذكسي اليونان على العرب(ص٤٩٠).

لربما يجدر هنا التوقف أمام نظرة الشراكسة، في الرواية، إلى العرب. وعلينا ألا نغفل أن هذه النظرة تعود إلى نهاية ق١٩ وبداية ق٢٠، وهما زمن أحداث الرواية. يأتي الشركس إلى عمان هرباً من المذابح التي ارتكبت بحقهم في روسيا القيصرية، ويقف الأتراك إلى جانبهم. من الشخصيات الشركسية في الرواية مقصود الذي قتل والده وهو يدافع عن ممتلكاته في عمان أمام غزوات أشرف التركي، ولمقصود خال شارك في المعارك ضد الروس، ولغة هذا العربية ضعيفة، ولهذا فهو يحتاج إلى مترجم يسهل له التفاهم مع العرب المحتالين (ص٣٠٩). وليس العرب محتالين وحسب، إنهم، كما يراهم الخال، مجانين ولا يحسنون التفكير.

يقص خال مقصود عليه عن معارك الشركس مع جنود القيصر، ويأتي على الحيلة التي لجأ إليها الشراكسة فانتصروا بسببها، ويسأل مقصوداً.

" بربك هل يوجد عربي يفكر هكذا"(ص٣١٣).

كأن العرب، بل هم في نظرة الخال، لا يحسنون التفكير. ونرى الشركس

يفضلون اليهود على العرب. يذهب مقصود إلى طبرية ويضاجع اليهوديات ويعقب:

" شتان بين العرب واليهود. عربيم موليخ لاخيم" ناقلاً بذلك شتيمة اليهود في العرب.

إن نظرة الآخرين للعرب، كما تبرزها الرواية، تبدو، كما لاحظنا، سلبية جداً. والسؤال هو: هل هذه النظرة السلبية تعود لأن العرب كانوا مغلوبين على أمرهم، وأنهم كانوا خاضعين لحكم آخر إسلامي ولكن غير عربي؟ لعلني هنا أكتفي بإبراز تَخَيّل تَخَيُّلْ المُتَخَيلْ، كما ورد في " الزوبعة "، فالإجابة عن هذا السؤال تقع خارج إطار العنوان وهو صورة الأتراك في نماذج قصصية من بلاد الشام"، وإن كان المرء يستطيع أن يقول إن بعض هذه الصور كان له أسبابه، فوصف العرب بأنهم غدارون خونة، وهو وصف يصدر عن جمال باشا، ما زال يتكرر لدى بعض الأتراك الذين ينقمون على العرب بسبب وقوفهم في الحرب الأولى إلى جانب الإنجليز، وقد أبرز ذلك الدكتور إبراهيم الداقوقي في كتابه " صورة العرب لدى الأتراك " (١٩٩٦). يكتب الداقوقي:

" إن مؤرخي الفترة الكمالية المتشبعين بالأفكار القومية المتطرفة: يوسف آنجورا ويوسف ضياء وسعدي مقصودي ورشيد صفت(صفوت) قد وضعوا المؤلفات التاريخية التي تتجاهل العرب، وإذا ما ذكروا فإنهم يذكرون – أي العرب – كأعداء، وخونة وطاعنين الأتراك في الظهر".(ص٤٥).

وتختلف هذه الصورة للعرب عن تلك التي قدمها لهم توفيق يوسف عواد و توفيق فياض وحنا مينه وزياد قاسم اختلافاً كلياً. العرب، في روايات هؤلاء وقصصهم، تحت الحكم العثماني في أيامه الأخيرة، كانوا يبحثون عن حريتهم واستقلالهم وتحررهم من نير الأتراك.

يقول الماركسيون إن الموقع يترك تأثيره على الموقف. فهل تفسر هذه المقولة الاختلاف في التصور للذات القومية وللذات غير القومية، هل للحقيقة وجه واحد أم أن لها وجهين أو وجوهاً عديدة؟ لن أقدم، شخصياً، إجابات، قدر ما أثير أسئلة، وإن كنت اقر بأن الأتراك ما كانوا لينهزموا لولا تردي حالتهم، وتحولهم إلى الرجل المريض الذي طمع الآخرون في أملاكه، بعد أن كان هو يدك أسوار أوروبا. وإنه لمن الممتع أن ينظر المرء إلى تصور العرب للأتراك، حين كان هؤلاء أقوياء في بداية امبراطوريتهم العثمانية.

الأتراك وتصورهم لذاتهم في الرواية العربية

تبرز الروايات المعاينة صورة للذات القومية، وقد ألمحت إليها بإيجاز، وتأتي أيضاً على صورة آخر هذه الذات، وهذا ما كان موضع معاينة مفصلة. وتظهر أيضاً تصور الآخر – وهنا نقصد التركي أكثر من غيره – للعرب، وقد عالجت ذلك في القسم الثاني. وتبدو لنا قليلاً صورة الآخر التركي لذاته. وهذه الصورة الأخيرة هي أيضاً صورة متخيلة تخيلها كاتب عربي، لأن تصور الأتراك عن أنفسهم في الأدب التركي يعكس تصورهم هم لا تصور الأدباء العرب، وتبدو معالجة هذه الصورة مغرية لأنها ستضعنا أمام تصورنا عرباً لتصور الأتراك لذاتهم، وتصور الأتراك أنفسهم لذاتهم.

وعلى العموم، يمكن القول إن تصور الأتراك لذاتهم، كما يبدو في النصوص المعاينة، يبدو قليلاً، ولربما تبدو رواية " الزوبعة " الوحيدة التي تعكس لنا هذه الصورة. وكنت أتيت من قبل على هذه الصورة بإيجاز شديد.

إنّ زيداً ابن خالة خالد الحجاج يقدم لنا هذه الصورة، ولكن زيداً هذا شخصية متقلبة متغيرة، وهو في تغيره وتقلبه يقدم لنا نموذجاً لبعض الأتراك، وتصدر عنه، في أثناء حديثه عن الأتراك، آراء متعارضة متناقضة في تثمين الأتراك وتبيان صورتهم في ذهنه. " الله فوق وتركيا تحت " يقول زيد مخاطباً أحد مساعديه الكبار حين يريد تعيين مديرٍ للمعارف في القدس، ويسأل عن هوية الشخص المقترح، اسمه: " هل هو تركي أباً عن جد ؟" (ص٣٤١)

وخالة زيد التركية، حين تعلم أن ابن أختها في القدس، ولم يأت ليسلم عليه، تصدر الرأي التالي في الأتراك: " إن الأتراك يعرفون الواجب والأصول تجاه الآخرين سواء أكانوا أقارب لهم أم لا.(ص٣٤١)

ولعل ما يلفت الانتباه هو مخاطبة زيد لخالته قائلاً:

" من سوانا يا خالتي يعرف الأصول. لا الفرنسيين ولا الإنجليز. لقد ساد الأتراك العالم بتواضعهم، الكبير كبير بتواضعه والصغير يصغر بتعاليه" (ص٣٤٢) وهو قول يتناقض وسلوكه في بعض مراحل حياته، حيث كان يتعالى على

العرب وبعض الأتراك. ولكن ما يفسر هذا التناقض هو ما يقوله السارد عن زيد" ما اسهل ما ينقلب زيد" (ص ٣٤١).

الأتراك هو سلطان الله على أرضه، وهم يعرفون الأصول أكثر من غيرهم، وقد سادوا العالم بتواضعهم. هكذا هم في عيني زيد، فكيف يتصور جمال باشا ذاته وقومه؟

" أنا دائماً أفي بوعودي، ومن لا يفي وعده يستحق قطع رأسه "(ص٤٨١) يخاطب جمال باشا اشرف التركي. وهذه هي العبارة البارزة التي ينطق بها جمال باشا مبرزاً تصوره لذاته، وأما ما كتب عنه في الرواية، وهو أكثر مما نطق به، فهو تصور السارد، ومن ورائه الكاتب، لهذا القائد التركي، وتبدو صورته سلبية جداً كما لاحظنا. والسؤال هو: لو قرأنا الأدبيات التي أنجزت، في زمن جمال باشا، من الأتراك أنفسهم، وتلك التي أنجزت منهم أيضاً بعد عام ١٩٢٤ فكيف كانت صورته فيها تبدو؟

الخلاصـــة

أنجزت النصوص المعاينة، كما لاحظنا، بعد زوال حكم الأتراك وفي زمن الدولة الوطنية، وغالباً ما كانت تكتب عن الأتراك يوم كان هؤلاء يحكمون الوطن العربي الذي عانى في فترة حكم الأتراك الأخيرة من الفقر والقمع والتخلف، وهذا جعل العرب لقمة سائغة لمستعمر جديد هو بريطانيا وفرنسا.

وما وصف به الأتراك من سلوكات شائنة، مثل الزنا واللواط وحب الذهب والقوادة وصف به غيرهم أيضاً، في الروايات نفسها. وكانت الكتابة عن الأتراك، بالإضافة إلى أنها أنجزت في زمن الدولة الوطنية، تخضع لرؤى الكتاب وتوجهاتهم، ولئن كانت النماذج التي برزت بدت غالباً سلبية، فإننا لم نعدم وجود نماذج إيجابية، وهذا ما بدا في نص حنا مينه الروائي.

ولربما يتساءل المرء: ماذا عن صورة الأتراك والكتابة عنهم فيما بعد عام ١٩١٨؟ ألم يكتب أي كاتب عن الأتراك أو عن نماذج بشرية تنتمي إلى ما بعد ١٩١٨؟ إن ذلك يشكل، في النصوص المعاينة، استثناء، وهو ما بدا في نص مينا. ولا أعرف شخصياً نصوصاً أخرى مشهورة أتت على الحياة في تركيا بعد عام ١٩٢٤ ليكتب أصحابها عن تركيا العلمانية. ويبدو أن اتصال العرب بالغرب، ودراسة كثير من الكتاب هناك، مثل توفيق الحكيم وسهيل إدريس والطيب صالح، هو ما جعلهم يكتبون عن نماذج أوروبية. وإن المرء ليتطلع إلى قراءة نصوص تصور الأتراك بعيداً عن عالم السياسة وبعيداً عن الماضي المؤلم، ليرى صورة هؤلاء كما يبدون عليه في حياتهم اليومية، وفي عالم لا تحكمه علاقات توتر وسيطرة جماعة على جماعة.

ملخص

أتناول في هذه الورقة ما أورده أكرم زعيتر ومحمد عزة دروزة في مذكراتهما، عن العلاقات السعودية الفلسطينية، في الفترة ما بين ١٩٢٥، ١٩٤٨.

وعلى الرغم من قلة ما أوردا من معلومات، في مذكراتهما، إلاّ أن الدارس يستطيع أن يكون صورة ما عن العلاقات بين الطرفين، وهي صورة بدت تارةً إيجابية، وطوراً تشوبها بعض الشوائب، ذلك أن طموحات أهل فلسطين كانت أكبر مما تستطيع السعودية القيام به من مساعدات، وذلك بسبب الضغوطات التي كانت تتعرض لها من بريطانيا.

Abstract

I study in this paper the relationship between the Saudi Arabia and the Palestinian, from 1925 to 1948, in Akram Zu’aiter and Mohammad ‘Izat Darwazeh’s diary.

Inspite of the lettle information, the researcher can write somethig about these relationship, which were oft good and friendly.

The ambitions of the Palestinian were high, and the Saudi Arabia can not help as the Palestinian wish, because the Saudi Arabi leadership was not stark and independent.